تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

قصة أدبية سورية :

لا أخفى أن شخصية « الآنسة » هجران شوق كانت موضع شك لدى فريق من الأدباء ، ولولا أن أديباً واحداً بقى على شكه ويريد أن يسبقنى إلى الكتابة حول هذا الموضوع ، لما تناولت القلم لأحدث قراء الرسالة عن هذه الشخصية « الأنثوية » التى لم أشأ أن أغلق فى وجهها الباب حتى اليوم .. لغرض مقصود !

هذا الأديب الصديق يريد أن يقول للقراء : إن « الآنسة » هجران شوق ما هى إلا أديب سورى يخاطبنى بلسان فتاة ؛ يريد أن يقول هذا ويكتفى به ، لأنه لا يملك دلائل الإثبات .. حسبه أنه مطمئن إلى هذا الظن ، مقتنع به ، عازم على أن يذكره على صفحات الرسالة ، معرباً عن عجبه من أن أسمح لذكائى المتواضع بأن يتقبل الخديعة !

وقلت للأديب الصديق : إنك لا تستطيع أن تثبت صحة هذه الظنون ، ومع ذلك فإننى أقدر ذكاءك . ذكاءك الذى صمد حيث لم يصمد ذكاء الآخرين ، وأعنى بهم هؤلاء الذين قرأوا رسالة « الآنسة » هجران الأخيرة فتبخرت شكوكهم حين لفحتهم لوعة الشعور من خلال السطور : لوعة الشعور « الأنثوى » الصارخ من وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجان .. لقد آمنوا بأن الصرخة صادقة كل الصدق ، بريئة كل البراءة ، وأن من وراءها حقاً شهيدة المجتمع وحبيسة الدار ! !

إننى أهنئك يا صديق على هذا الذكاء ، وأؤكد لك أن ذكاءك المتواضع لم يتقبل الخديعة فى يوم من الأيام . . هذه حقيقة أفضيت بها إلى بعض الناس منذ أشهر ، كما أفضيت بها إلى هؤلاء الذين تبخرت شكوكهم بعد أن قرأوا رسالة هجران الأخيرة .. كل ما دفعنى إلى أن أظهر بمظهر المخدوع أمام الكثيرين وأمامها « هى » بوجه أخص ، هو أننى كنت أريد ألا أغلق فى وجهها الباب لغرض مقصود ، هذا الغرض هو أن يخونها الذكاء يوماً فتطل من فرجة الباب بوجهها الحقيقى الذى لم تغيره الألوان والمساحيق .. ولم يخب ظنى فقد أقبل اليوم المنتظر ، اليوم الذى خانها فيه الذكاء أو خانتها الذاكرة ، فنسيت أن تضع على وجهها قليلا من الطلاء قبل أن تطل برأسها من فرجة الباب المفتوح ! !

هذا هو دليل الإثبات الأول الذى يعوزك يا صديق أن تقدمه ، والذى يجعل ذكاءك محصوراً فى دائرة ضيقة محورها الظن الذى تحسه النفس ويفتقر معه العقل إلى برهان . هذا البرهان الذى كان يمكن أن تضع عليه يدك فى رسالة هجران الأخيرة وهى تشكو وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجان ! عد إلى رسائلها الأولى ثم قف طويلا عند هذه الرسالة الأخيرة ، وقارن بين بعض الظواهر هنا وبعض الظواهر هناك ، وأنا واثق من أنك ستجد المفتاح الضخم الذى يمكنك أن تضعه فى ثقب الباب لينفتح ، ويكشف لك عما وراءه من حجرات يسطع فيها الضياء . . بعد هذا دعنى أقدم لك عدداً من المفاتيح بدلا من مفتاح واحد ، ولك أنت أن تضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون !

لقد قلت فى ردى على أول رسالة من « الآنسة » هجران إننى اعتقد أنها أديب سورى يخاطبنى من وراء قناع . . وحين تلقيت رسالتها الثانية التى ظهرت فيها بمظهر الغاضبة والعاتبة على هذا الاعتقاد الذى لا أساس له من الصحة كما تعبر البلاغات الرسمية رحت أعتذر إليها من هذا الاعتقاد « الخاطىء » الذى كان مصدره أننى لم أقرأ لها شيئاً من قبل فى الصحف والمجلات . . قلت هذا وأنا باق على يقينى الأول لم يشغلنى عنه أنها عازمة على الحضور إلى مصر فى المؤتمر الثقافى لتثبت لى شخصيتها الأنثوية ، ولا أنها بعثت إلى بعنوانها فى دمشق كوسيلة من وسائل هذا الإثبات . . قلته وأنا واثق من أنها لن تحضر ، ولم أحاول أن أكتب إليها على ذلك العنوان لثقتى مرة أخرى من أنه عنوان لا وجود له ، وقد أثبتت الأيام فى الحالين صدق هذا اليقين ! !

وقالت الأديبة السورية المعروفة السيدة رداد سكاكينى وهى تزورنى فى وزارة المعارف عقب انتهاء المؤتمر الثقافى : أود أن أقول لك إن شخصية « الآنسة » هجران شوق شخصية خيالية ..

وقلت لها رداً على اللفتة البارعة : وأود أن أؤكد لك أنها كذلك! وارتسمت على وجهها صور من الدهشة وهي تقول مرة ثانية : ولماذا إذن تنشر لها قصائدها ورسائلها ما دمت تعتقد أنها شخصية مستعارة ؟! وأجبت وقد علت شفتي ابتسامة ذات معان لسببين.. الأول لأنني لا أريد أن أغلق في وجهها الباب لتبرهن « هي » على أن شخصيتها الأنثوية تحتاج إلى اثبات ، وقد برهنت على ذلك حتى الآن بتخلفها عن الحضور في المؤتمر التقافي ! أما السبب الأخير فهو أنني راض عن إنتاجها الأدبي فهو من هذه الناحية جدير بالنشر حري بالتشجيع ، وأنا لا أهتم بمن قال فدر اهتمامي بما قال . . وانقضت بعد ذلك أيام وأشرت إلى هذا الحديث إشارة ذات مغزى على صفحات الرسالة ، حين قلت « للآنسة » هجران إن السيدة وداد سكاكيني قد سألتني عنك ، وأرجو أن تحملي إليها خالص التحية ! !

وحدث بعد ذلك أن عاد الصديق الأديب الأستاذ حبيب الزحلاوي من رحلته الموفقة إلى سورية ولبنان لينقل إلى بعض ما سمعه هناك ، وليطالعني بمثل ما طالعتني به السيدة الفاضلة وداد سكاكيني . وقلت للأستاذ حبيب في معرض الحديث الذي وافقته فيه على صدق ظنونه ، هون عليك ياصديقي فما كتب يوماً عن هذا الموضوع ! ولعل قارئاً يسألني : على أية دعامة من الدعائم أقمت يقينك الأول بأن « الآنسة » هجران شوقي ما هي إلا أديب يخاطبك من وراء قناع ؟ والجواب عن هذا السؤال هو أن أسأله : أتظن أن هناك أديبة تملك كل هذا النضج في تعبيرها النثري ، وكل هذه الأصالة في صياغتها الشعرية ، ثم لا تحاول مرة واحدة أن تظهر في ميدان الأدب لولا هذه الناسية العابرة التي دفعتها إلى الظهور ، يوم أن تحدثت عن قصيدة الشاعر يوسف حداد ؟ ! ثم هل تظن مرة أخرى أن هناك من يزهد في المجد الأدبي كل هذا الزهد ، وهو يعلم أن كلا من شعره ونثره يمكن أن يطرق الأبواب في كثير من الثقة والاطمئنان ؟ ! . . ضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون ! !

إن الذكاء كما قلت لك كثيراً ما يخون ، ولو لم تنهد « الآنسة » هجران في ذكائها لما تعثرت قدماها في هذا الطريق الذي تعمدت أن تسير فيه . . لقد حدث أن تعثرت قدماها فسقطت ، وحين سقطت اصطدم وجهها بصخور الطريق ، فتمزق النقاب الذي كان يخفي وجهها فظهر على حقيقته للعيون ! معذرة ياه آنسة » فقد حرصت من جهتي على أن أرسم لك خط السير ولكنك كنت تسيرين مسرعة ، لا تكادين تلتفتين لحظة إلى الوراء . . لو أنك مددت عينيك مرة واحدة إلى الخلف لما تعثرت قدماك ، ولما اصطدم وجهك بصخور الطريق ، ولما تمزق النقاب ! أقصد لو أنك تذكرت ما جاء برسائلك الماضية من أنك حرة طليقة تملكين من هذه الحرية التي لا تحد ما يهيىء لك الحضور إلى القاهرة لتجلسي إلى هذا وتتحدثي إلى ذاك ، وتغشى المجتمعات الأدبية في بلد غريب لتشاركي في أمور الأدب والفن ؛ لو تذكرت هذا كله لما شكوت في رسالتك الأخيرة ظلم المجتمع وقسوة التقاليد ، ذلك المجتمع الذي فرض عليك أن تكوني شهيدة القيد وهذه التقاليد الذي ضربت من حولك نطاقاً من الأسر جعلت حبيسة الدار رهينة الجدران . . أي منطق هذا الذي يؤكد لنا اليوم أنك سجينة مقيدة ، بعد أن أكد لنا بالأمس أنك حرة طليقة ؟ إنها هفوة من هفوات الذكاء . . الذكاء الخائن في أحرج الأوقات ! وهذا هو المفتاح الضخم الذي قدمته منذ أسابيع لهؤلاء الذين تبخرت ظنونهم حول شخصية « الآنسة » هجران المفتاح الذي يستطيعون أن يضعوه في ثقب الباب لينفتح ، ويكشف لهم عما وراءه من حجرات يسطع فيها الضياء ! !

ورب سائل يسألني وقد تجمعت بين يدي شتى الخيوط التي تنسج أثواب اليقين : لقد كنت تعتقد أن عنوانها الذي بعثت به إليك منذ أشهر ليس له وجود في دمشق ، فلماذا بعثت إليها آخر الأمر بتلك الرسالة الخاصة التي أشرت إليها منذ قريب في « التعقيبات » ؟ لقد أقدمت على ذلك لأتاح بآخر سهم في جعبة الاعتقاد ، الاعتقاد الراسخ بأن الذي يكتب إلى فتى لا فتاة . . . وكنت واثقاً كل الثقة من أن رسالتي الخاصة سترد إلى مرة أخرى وعليها إشارة مصلحة البريد في دمشق بأن هذا العنوان لا وجود له ، وقد كان ! . وبقي هناك غرض مقصود من وراء هذه الرسالة التي كنت أتوقع أن ترد إلى وهو أن أقدم الدليل المادي القاطع لمن يهمهم أن يطلعوا عليه ، ومن بينهم « الآنسة » هجران شوقي إذا حاولت أن تكتب إلى

غاضبة وعاتبة !!

ومع ذلك فأنا أود أن أقول « للآنسة » الفاضلة وللكثيرين إنني لا أهتم بمن قال قدر اهتمامي بما قال . . والدليل هو أن « الرسالة » قد نشرت لها في العدد الماضي قصيدة « القمر » ، ولا يزال لها عندي قصيدتان سأنشرهما في الأعداد المقبلة . . كل ما أرجوه هو أن تعتقد « الآنسة » هجران بأنني حتى هذه اللحظة صديق ، وليس عليها من بأس إذا هي كشفت للقراء عن إسمها الآخر ، إسمها الصريح . . إسمها الذي أعتقد أنني أعرفه ، والذي تحدثت عنه إلى عدد من الأصدقاء !!

بيتاه لجميل بثينة :

كنت أستذكر بعض محفوظاتي من الشعر لجميل بن معمر العذري . وفجأة استوقفني بيتان لم أستطع أن أمر عليهما مر الكرام ، وهذان هما البيتان :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله !

والذي استوقفني في هذين البيتين هو الشطر الثاني من البيت الأول ، أي قول جميل : لو أبصره الواشي لقرت بلابله . . وقد رأيت في معنى قوله هذا غمطا لحق الواشي وتغييرا لطبيعته . فالواشي المتلصص على هناء حبيبين لن تقر بلابله عندما يرى المحب قانعا من حبيبته بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى . . بل سينفجر غيظه وتثور مراجله . فهو لم يتلصص ليراهما على هذه الحال فليس فيها لوم ولا تثريب . . وإنما ليراهما في حالة مريبة وآنئذ تقر بلابله !

وإني أرى أن يكون قول جميل ، ورعا كان هو الأصح :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لثارت مراجله!

فأرجو من حضرة الأستاذ الكريم إفادتي على صفحات الرسالة الغراء : أنظرتي خاطئة ؟ أم الخطأ من الشاعر ، أم من الرواة ؟ ولكم خالص الشكر والتحية .

«الرقة ـ سورية» محمود تركي الرجبي

الشيء الذي أود أن يطمئن إليه الأديب الفاضل هو أن هذين البيتين من شعر جميل بثينة ، لا غبار عليهما من ناحية النقل الأمين للشعر القديم . . أما الشطر الثاني من البيت الأول فلا غبار عليه أيضا من ناحية الصدق الفني أو من ناحية السلامة التعبيرية .

إن جميل بثينة يريد أن يعبر عن حقيقة هواه ويريد في نفس الوقت أن يفصح عن سر أساه . فحقيقة الحب عند جميل أنه عذري لم تدنسه شهوة ، ولم يعبث بطهره إثم ، ولم تذهب بصفائه نزوات الجسد أو سقطات الغواية . وسر الأسى عند جميل أن الوشاة لم يتقوا الله ولم يراعوا الضمير ، حين أطلقوا لخيالهم العنان حول هذه العلاقة البريئة الطاهرة بمن يحب ! إنهم أصحاب شكوك وأوهام ، لأنهم لم « يبصروا » الواقع الذي لا يخرج منه بغير الأماني الكاذبة والوعود الباطلة !

بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله!

هذا الواشي الذي يعنيه جميل ، لم « يبصر » هذا الذي يقنع به دائما من حبه لبثينة ولو أبصر لما « تخيل » . لما تخيل أن كل محظور قد وقع في عالم المنظور ! وهنا تبدو « الرؤية الشعرية » واضحة كل الوضوح صافية كل الصفاء ، لأن هذا الواشي الذي يجور على الحق وينأى عن الإنصاف ، قد اتخذ الخيال الآثم معبره إلى الظنون ، ومن طبيعة الظنون أن تثير الخواطر حين تفترض وجود الشبهات . . فلو أن الوشاة قد رأوا بعين الحقيقة لا بعين الخيال ، لقرت بلابلهم ، وهدأت مراجلهم ، وأنصفوا الحقيقة المظلومة ورحموا الواقع الشهيد . ولكنهم للأسف لا يبصرون . . ولهذا يتقولون !!

وإذن فالمعنى الذي يهدف إليه الشاعر مستقيم لا التواء به واضح لا غموض فيه . ولو رجع الأديب الفاضل إلى الشطر الثاني من البيت الأول ، لأدرك أن « الحركة النفسية » في قول جميل : « لقرت » بلابله ، مرتبطة كل الارتباط « بالحركة المادية » في قوله : لو « أبصره » الواشي . . وهذه هي « الرؤية الشعرية » الصادقة التي تعتمد أكثر ما تعتمد على دقة « العلاقة النفسية » بين حركتين : تعمل إحداهما في حدود الواقع المحس وتعمل الأخرى في حدود الواقع المنظور .

مع الفهد الشريد في العراق :

يسر حضرات الذين بعثوا إلى برسائلهم حول محنة الشاعر